جولة هوائية

بين السماء والارض

في العقد الثاني من القرن العشرين تحققت أمنية من اجل أماني البشر واقدمها. نشأت مع الانسان منذ بدء التاريخ وطفولة العالم وتمثلت معهُ جيلاً فجيلاً متخذة اشكالاً شتى وصوراً مختلفة تبعاً لدرجة رقيهِ وادراكهِ. مرّت بخاطر الانسان الاول فأبرزها الى الوجود مدرجة في ثوب من الخرافة. ثم جاشت بنفوس الشعراء والعاشقين وتنزلت عليهم من سماء الوحي الشعري فابرزوها مرة اخرى متشحة بثوب من الخيال محوطة بنشيج العاشقين ودموعهم. ثم مرت ببوتقة الزمن فظهرت لنا في آخر الامر بين ايدي العلماء والمحققين وفي بطون المعاهد والمعامل. تلك الامنية هي امنية الطيران ولست أزيد القارىء بها تعريفاً بعد ان اصبحت حقيقة ملموسة باليد مرئية بالعين وبعد ان غدت الطيارات والمراكب الهوائية تشق اجواز الفضاء كما تسبح الفلك فوق صفحة الماء

كبساط الريح في القدرة او هبدهد السيرة في صدق البلاء
او كحوت يرمي الموج به سابح بين ظهور وخفاء

ذلك ما جاد بهِ القرن العشرون من غريب معجزاتهِ وبديع آياتهِ. ذلّل للانسان متن الجو واستلم قيادهُ. فساد الانسان بذلك مملكة الطير كما ساد من قبل ممالك الجماد والنبات والحيوان. نعم سادها سيادة مطلقة اذ استظهر عليها وغلبها على امرها فاصبح يقوم في الهواء بحركات لا تقدر هي على مجاراته فيها. كيف لا وهو يأتي من غرائب الالعاب ما تكاد تطير لهُ نفس الرائي شعاعاً وجزعاً. فيرتفع وينخفض وينحرف ويعتدل وينقلب ثم ينتظم. ألعاب لا يتأتى للطير ان يحاكيها ولو تقطعت نياط قلبه. نشاهد تلك الالعاب فتبعث في نفوسنا من الروعة والاعجاب بقدر مهارة لاعبيها. ولكن قل ان يستطيع احد منا ان يقيسها بمقياسها الحقيقي او ان يدرك التأثير الذي تحدثهُ في نفس المرء لاول مرة يركب فيها طيارة. ولما كنت قد ركبت طيارة مع احد مجازفي الطيارين لبثت فيها نحواً من اربعين دقيقة قام الطيار في خلالها بكل مستحدثات الالعاب كعقدة

الانشوطة والنزول الحلزوني والانحراف الجناحي الخ لذلك اتقدم الى قراء المقتطف واصفاً لهم مقدار الاثر الذي تركتهُ تلك الجولة الهوائية في نفسي وذلك من قبيل اللذة والتفكهة

في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الخميس الموافق ٢ مايو سنة ١٩١٨ اتاني نبأ من قائد الفرقة التي كنت اشتغل فيها بان استعد لركوب احدى الطيارات التي كان قد تم اصلاحها واعدت للطيران. فصدعت بالامر وخرجت من محل شغلي الى مظلة الطيران حيث وجدت الطيار واقفاً بانتظاري فقال لي مبتسماً وهو يشير الى طربوشي «لن يلبث هذا فوق راسك لحظة واحدة فيجمل بك خلعه واستبدال قلنسوة من قلانس الطيران به» ولحسن الحظ كانت هذه القلانس كثيرة في المظلة فاعار في احد الميكانيكيين الذين كانوا على مقربة مني قلنسوتهُ فاخذتها وشددتها شداً محكماً الى رأسي حتى لا تلعب بها الريح وحتى تقيني من البرد . وما كدت انتهي من شد هذه القلنسوة حتى رأيت الطيار قد وثب الى مقعدهِ في الطيارة فاقتديت بهِ وقفزت الى مقعد وراءه يدعى عادة بمقعد المراقب وهو الذي يجلس فيهِ المراقب اما للقيام باستكشاف المواقع او للاستطلاع او للقتال الخ وربطت نفسي الى الطيارة بحزام متين فاصبحت انا وهي قطعة واحدة وكأني بذلك قد ربطت حظي بها يصيبني ما يصيبها ويعروني ما يعروها

وقد كنت وقتئذٍ تتنازعني جملة عوامل مختلفة هي خليط من الفرح والخوف — الفرح لاني كنت على وشك ان احقق امنية طالما صبوت اليها الا وهي ركوب طيارة — والخوف لاني كنت مقدماً على رحلة لا يدري الانسان أيرجع منها حيًّا ام ميتاً لاسيما ان حوادث السقوط وموت الطيارين كانت تتكرر امام اعيننا مراراً في الشهر الواحد

وبينما انا غارق في بحار التأملات تتنازعني تلك العوامل المختلفة اذا بالطيار قد ادار محركهُ ودار بالطيارة حتى يستقبل الريح فكنت كمن افاق من حلم عميق فرأيت الطيارة تثب وثباً في ميدان الطيران وتزداد في السرعة شيئاً فشيئاً حتى اذا ما وصلت الى السرعة التي تساعدها على الصعود ارتفعت عن اديم الارض دفعة واحدة كانها سيف مجرد او سهم مسدد فشعرت كانما قد أخذ بتلابيبي ولوحت ما بين السماء والارض ولم استفق الاَّ والطيارة تصعد في مرتفع سهل المرتقى

فرأيت الارض تبتعد عنا بسرعة مدهشة . وما هي الاَّ لحظة حتى شاهدت ماء البحر الابيض المتوسط مع انهُ كان يبعد عن ميدان الطيران مسافة يجتازها الماشي المجد في نصف ساعة من الزمن فاستنتجت من ذلك اننا لا بد ان نكون قد علونا علوًّا كبيراً فالقيت بنظري الى الاسفل فاذا بمظلات الطيران الهائلة قد صغرت امام عيني حتى اصبح حجمها لا يزيد عن قطع اللبن. وقد ظهرت الخيام التي كنا نعسكر فيها كانها نقط بيضاء وسط المرج الاخضر. ثم اخذت الطيارة ترتفع تدريجيًّا وقد كانت كل حواسي متنبهة اذ ذاك فكانت تتضاعف لدى مشاعر اللذة او الخوف التي تبعثها في فؤادي كل حركة من حركات الطيارة. فطفقت انظر الى ما بين يدي وما فوقي وما تحتي فرأيت منظر السماء هو بعينهِ لم يتغير غير ان الغمام الذي نشاهدهُ من الارض كسطح دخاني يعلو رؤوسنا اصبح الآن على مستوى نظري فشاهدتهُ كتلاً دخانية معلقة في الفضاء الفسيح . وقد كانت احدى هذه الكتل تجاهنا وعلى مقربة منا وما هي الاَّ غمضة عين حتى وجدتني اخترق احشاء ضبابة هائلة اكتنفتني من جميع نواحي فقهمت اننا قد ولجنا الغمامة واننا الآن نجتازها ولكننا لم نلبث الاَّ قليلاً حتى اضاء ما حولنا وخرجنا من الظلمة الى النور. فاجلت عيني يمنة ويسرة فرأيت البحر تحتي صافي الزرقة واسع الارجاء لا يدرك الطرف آخرهُ وكانما هو مرآة قد ابدع صقلها الصاقلون فكانت تذوب امواجهُ قبل ان يدركها الطرف او تلحظها العين. وقد راقني من منظر البحر ظلال الغمام التي كانت تلقيها عليهِ اشعة الشمس في طريقها الى العالم الارضي فكانت تظهر البقع الملقاة عليها هذه الظلال اشد زرقة من غيرها . وكانت قوارب الصيد تتراءى لك كانها فقاقيع فوق سطح البحر الكبير

اما الارض فكان منظرها بهجة النفس وفتنة العين اذ لبست كلها حلة سندسية خضراء ولم ترَ فيها ركاماً ولا رغاماً بل رأيناها مروجاً واسعة منقسمة الى مستطيلات منتظمة لا انحراف فيها بعضها خفيف الخضرة كالميادين الرملية الواسعة التي ازهر فيها قليل من النباتات البرية وبعضها شديدها كالارض المزروعة نخيلاً واشجاراً اذ على هذا الارتفاع ترى الاشجار كانها ملتصقة بسطح الارض . وقد كان منظر البلاد والقرى بديعاً جدًّا فكانت مساحة البلدة بضواحيها لا تزيد

على مساحة الخريطة الجغرافية وكانت الشوارع تظهر واضحة اكمالا يزيد اتساعها على خط رسم بالقلم

ولقد كانت الريح الناشئة عن سرعة سير الطيارة شديدة جداً فاضطررت ان امسك قلنسوتي بيدي رغماً عن انها كانت محكمة الوثاق الى ذقني . وذلك خوفاً عليها من ان تنتزعها يد الريح من رأسي فلا اجد لي سبيلاً الى استرجاعها . وكنت ممسكاً باليد الاخرى جانب المقعد كأنما كنت اخشى على نفسي السقوط . وكانت قدماي تضغطان قعر الطيارة ضغطاً شديداً خلت معهُ اني سأُبرت اليها فاصبحت انا وهي كتلة واحدة . ولكن بالرغم من شدة الريح وعصفها كانت تخلص الينا منها نسمة باردة منعشة تحيي موات النفس وتبعث فاتر الهمم . وكانت تصحب تلك النسمة نغمة مستديمة ذات نسق واحد متولدة من تلاعب الريح بالاسلاك التي تشد الاجنحة بعضها الى بعض . وهذه النغمة هي غير الصوت الشديد الذي ينبعث من المحرك وغير الصوت الناشيء من دوران ريش الرفاص وقطعها في الهواء (وهي ما يدعى في عرف الطيران بطنين الطيارة) وكان يجتمع من هذا وذاك جملة نغمات غير منتظمة اشتركت في توقيعها اعضاء الطيارة المختلفة . فاشجتني تلك الاصوات على اضطرابها واذكرتني قول شوقي في وصفها

تملأ الآفاق صوتاً وصدى كعزيف الجن في الارض العراء
ارسلتهُ الارض عنها خبراً طن في آذان سكان السماء

غير ان تلك المناظر على جدتها وقرب عهدي بها لم تكن لتشغلني عن مراقبة سير الطيارة وتتبع حركاتها وتطبيق معلوماتي النظرية على المشاهدات الواقعية . فوجدت ان اجزاء الطيارة حساسة للغاية حتى ان اقل حركة من حركات الدفة كانت تغير وجهة سيرنا تماماً كما ان اقل حركة من حركات جناحي الامالة كان يعقبها ميل شديد من الطيارة الى احد جانبيها . فعجبت لذلك ايما عجب ولاسيما اني كنت اعلم حق العلم مقدار ما كان يعانيهِ الاخوان ريط وغيرهما من التعب الشديد في تسيير طياراتهم اذ كان ذلك يتطلب منهم مجهوداً بدنياً عظيماً فقلت في نفسي حقيقة لو لم تكن هذه الحرب لقضى فن الطيران عشرات من السنين قبل ان يصل الى هذه الدرجة من الدقة والاتقان

في تلك اللحظة كان قد مضى علينا زهاء العشرين دقيقة في الهواء لم يفاتحني الطيار في خلالها بكلمة واحدة مع انني كنت جالساً وراءه تماماً وكنت اظن ان الكلام غير ميسور نظراً الى الغوضاء الشديدة التي كان يحدثها المحرك . فبينا انا كذلك اذا بي اسمع صوتاً يناديني كأنهُ آتٍ من اعماق بعيدة وقائلاً يقول هلو هلو . كيف حالك . أانت بخير فاجبت فوراً نعم انا بخير ومغتبط برحلتي هذه غاية الاغتباط . فاجاب حسناً ففهمت في الحال انهُ لم يسألني هذا السؤال الا ليجس أعصابي ويعلم ان كنت ثابت الجأش ام مضطرباً خائر القوى كما هي الحال مع الكثيرين لاول مرة يطيرون فيها

وقد كان هذا الطيار مغرماً بالالاعيب البهلوانية الهوائية لاسيما بالضرب المدعو بالنزول الحلزوني وهو ان ينزل الطيار ورأس طيارته الى اسفل وذنبها الى اعلى متتبعاً في نزوله طريقاً حلزونياً وبذلك يمكنهُ ان ينزل مسافات هائلة دون ان يبتعد كثيراً عن الدائرة الارضية التي كان يطير فوقها . اما طريقة النزول الاعتيادية فهي ان يوقف الطيار محرك الطيارة ويتركها لنفسها فتنحدر هي من تلقاء ذاتها الى الاسفل على درجة ميل مخصوص تدعى بزاوية الانحدار الطبيعية

ولم تمض بضع ثوان على السؤال الذي القاهُ الطيار الي حتى رأيت الطيارة قد انقضت فجأة الى الاسفل كما ينقض القضاء او كما تنحط الصخرة قذف بها من حالق فتملكني رعب شديد اختلج لهُ قلبي واضطربت لهُ جميع اجزاء نفسي لاسيما وقد مالت بنا الطيارة واعتدلت مرات متوالية فشاهدت الاشياء المحيطة بنا تتغير مواقعها بالنسبة الي . فكانت الارض والسماء والبحار تجري امامي سراعاً وتطوى طياً فبينا ارى الارض والبحر تحتي اذا بي اراهما الى يميني او الى يساري ثم فوقي . وكان لسرعة حركة الطيارة يخيل لي ان المحيط هو الذي يتحرك وليست الطيارة فاذا ما رأيت الارض تحتي ثم انتقلت فرأيتها الى جانبي خيّل لي ان الارض قد انتصبت فاصبحت قائمة كالجدار الطائل تسد منافذ القضاء . ولقد توالت امامي هذه المناظر بسرعة مدهشة كدت معها اغيب عن صوابي واصبحت لا اطيق ان افتح عيني فارى الطيارة تذهب بي كل مذهب وتنقلب بي كل منقلب فاغمضتها واسلمت نفسي الى مشيئة الله ومهارة الطيار

ولبثت كذلك لحظات قليلة كنت فيها بين الرجاء واليأس ولم استفق الا وقد

اعتدل ميزان الطيارة وانتظم سيرها . ولكن لم اكد اتنفس الصعداء واستجمع قواي المشتتة حتى شرع الطيار ينزل بنا نزولاً حلزونيًّا فقاسيت منهُ ما قاسيت في الحركات الاولى بل اكثر . وكانت الطيارة تميل على احد جانبيها حتى يكاد الجناحان يصبحان أفقيين فكان يشب قلبي من الجزع وتصطك ركبتاي . ثم تندفع الطيارة ورأسها متجه الى الاسفل فتشق اطباق الهواء بصوت يكاد يصم الآذان . وكنت اشعر اثناء هبوطها السريع انني قد رفعت عن مقعدي وانهُ لولا الحزام الذي كان يشدني اليها لانفصلت عنها وسقطت الى اعماق ذلك الفضاء المخيف . وقد زاد في مخاوفي ان الطيار قام بعمل عشر دورات حلزونية هبطت الطيارة فيها من ارتفاع ٧٠٠٠ قدم الى ١٠٠٠ قدم تقريباً فتكون قد هبطت في الدورات العشر ستة آلاف قدم اي بنسبة ٦٠٠ قدم في الدورة الحلزونية الواحدة . ولكن بعد ذلك اعتدلت الطيارة ولشد ما كانت دهشتي حينما القيت بنظري فالفيت اشجار النخيل وقد ظهرت صغيرة كأنها القصب النابت فوق سطح الارض وكذلك مظلات الطيارات والخيام فانها وضح شكلها وان كان حجمها يلوح صغيراً

فلبثنا على هذا الارتفاع نحو خمس دقائق ثم انحدرنا الى الارض الهوينا على زاوية الانحدار الطبيعية حتى اذا ما اصبحنا منها قاب قوسين او ادنى حرك الطيار الرافعين الخلفيين فارتفع رأس الطيارة واعتدل جسمها حتى صار افقياً ساعة ملامستها للارض . وهكذا نزلنا الى ميدان الطيران سالمين ودرنا حولهُ حتى وصلنا امام المظلة الخاصة بطيارتنا وأنا اشد الناس اغتباطاً بما شاهدت . فمددت يدي الى الطيار شاكراً ونظرت اليهِ نظرة جمعت بين الاعجاب بمهارته ومخاطرته وبين الاعتراف لهُ بجميل لن انساه ما دمت حياً . ثم قفزت من الطيارة يكاد يستخفني الطرب ويستطيرني الفرح وكان بانتظاري نفر من اخواني المصريين صفقوا لي حينما نزلت فشرحت لهم ما شاهدت وما كابدت . ومن ذلك اليوم الى عهد قريب جداً كنت لا ارى سيارة من السيارات مهما كبر حجمها ولا عربة من عربات النقل الضخمة الا استهنت بها وشعرت بحقارتها

يوسف العارف

مهندس بورشة اسيوط الصناعية الاميرية